الدكتور منيف الرزاز

لماذا الإشتراكية الآن ؟



منشورات 1989 الطليعة

البعث والاشتراكية - الكتابات الأولى

3



لماذا الاشتراكية ... الآن ؟

للدكتور منيف الرزاز

أود قبل ان أبدأ في بحثي هذا أن أنبه الاذهان الى انني لا أريد أن أقارن بين الاشتراكية والرأسمالية وان أفضل طبعاً الاشتراكية فذلك ، على أهميته ، ليس موضوع حديثي الآن .

وانما أريد في البحث هذا ان أصحح فكرة خاطئة كثيراً ما تتبادر الى أذهان الكثيرين من مفكرين وعاملين في السياسة ، حتى أولئك الذين يؤمنون بالاشتراكية كحل لمشاكل الاقتصاد الكثيرة . فأصحاب هذه الفكرة الخاطئة يرون المناداة بالاشتراكية في المرحلة الحالية ، ووضعها هدفاً من أهداف اليوم . والسير في ظلال هذا الشعار وتحت كنفه الآن نوع من ضياع الجهد ، أو نوع من

الخيال البعيد التحقيق ان لم يكن نوعاً من الغرور القصير النظر ، أو المتقطع الذي لا معنى له .

فهم يقولون اننا قد نؤمن بأن الاشتراكية شيء أفضل من الرأسمالية ، وقد نؤمن بأن الاشتراكية مرحلة لا بد ان نصل اليها يوماً ، وقد نؤمن بأن الاشتراكية ستكون مستقبلاً الحل الوحيد لمشاكلنا الاقتصادية ، ولكن ما معنى وضعها هدفاً من الاهداف التي نسعى اليها اليوم ، وما معنى جعلها شعاراً من الشعارات التي تظلل كفاحنا اليوم ، وما معنى أن نصرف جهداً أي جهد ، في سبيلها ونحن نخوض معركة أخرى بعضهم يحب ان يسميها معركة التحرر ، وبعضهم يحب ان يسميها معركة الوحدة . أو ليست الاشتراكية نطاقاً اقتصادياً خاصاً له شروط معينة وأحوال مدونة ؟ أو ليست الاشتراكية بهذا المعنى شيئاً بعيد التحقيق في الوقت الحاضر بل وفي وقت قريب ؟ أو ليست الاشتراكية مستحيلة التحقيق مثلاً في الاردن اذا بقي كياناً قائماً بذاته واذا ظلت الدول العربية المحيطة به تتبع النظام الرأسمالي ؟ اذاً لماذا نضع الاشتراكية في نفس المستوى الذي نضع فيه التحرر أو نضع فيه الوحدة ؟

ولا اخال أحدكم الا وقد تبادرت الى ذهنه هذه الاسئلة أو تبادرت الى سمعه من غيره على الاقل — ومحاولة الاجابة على هذه الاسئلة هي موضوع هذا البحث .

فالواقع ان فهم الاشتراكية كثيراً ما يتخذ أشكالاً

خاطئة ، وأقول خاطئة ولا أقول مختلفة فحسب ، فكون الاشتراكية تتخذ أشكالاً مختلفة واضح وبديهي لا يحتاج الى بيان ، وأقل اطلاع بسيط على تاريخ المذاهب الاشتراكية يوضح هذا الذي أقول أحسن ايضاح ، ولكن الاشتراكية بالاضافة الى ذلك تفهم أحياناً فهماً خاطئاً ، وأوجه الفهم الخاطيء كثيرة ولكن يهمنا منها اليوم وجه واحد هو الذي يفهم الاشتراكية على انها نظام اقتصادي ، ونظام اقتصادي فحسب .

فالاشتراكية تقدم حلولاً اقتصادية لمسائل كثيرة تتعلق بالانتاج والاستهلاك وتوزيع الثروة والملكية العامة وأحوال العمال وشروط العمل وما الى ذلك ، ولكن هذه الحلول جميعاً ليست الا ناحية واحدة من نواحي الاشتراكية ، وفهمها على أساس هذه الناحية الواحدة فهم خاطيء لا ينفذ الى الاعماق ولا يتعرف الى الأسس التي تقوم عليهـــــا الاشتراكية ، ولا يتطلع الى الآفاق البعيدة التي تذهب اليها الاشتراكية .

فالواقع ان الاشتراكية ليست مذهباً اقتصادياً وانما هي مذهب للحياة ومذهب للفهم ، وهي بعد ذلك أسلوب للحياة وأسلوب للفهم . فان تكون اشتراكياً لا يعني بالضرورة ان تعيش في ظل نظام اشتراكي وانما ان تكون اشتراكياً يعني بالضرورة ان تفهم الحياة وان تعمل فـــي الحياة ، وان تكافح في الحياة ، فهو عمل وكفاح

اشتراكي .

فالاشتراكية مذهب للحياة ، لا مذهب للاقتصاد، مذهب يمتد فيما يمتد الى الاقتصاد والسياسة والتربية والتعليم والاجتماع والصحة والاخلاق والادب والعلم والتاريخ ، والى كل أوجه الحياة كبيرها وصغيرها ، وان تكون اشتراكياً يعني ان يكون لك فهم اشتراكي لكل هذا الذي ذكرت ، وان يكون لك كفاح اشتراكي يضم كل هذا الذي ذكرت.

وليست الاشتراكية وحدها هي التي لها هذه الصفة ، صفة الشمول ، فالرأسمالية أيضاً مذهب نخطيء اذ نظن انه وضع اقتصادي معين . والاقطاع ايضاً مذهب أو طريقة معينة للحياة نخطيء اذ نظن أنه وضع اقتصادي معين . فالرأسمالية والاقطاع والعشائرية والاشتراكية ، والشيوعية كلها أوضاع حياة لا أوضاع اقتصاد فحسب وانما اتخذت أساليب الحياة المختلفة هذه ، تلك الاسماء الاقتصادية لأن العلم اكتشف منذ مدة بسيطة لا تتجاوز القرن من الزمان ان الواقع الاقتصادي لأي مجتمع هو الذي يكشف عن اتجاهاته وعلاقاته في بقية نواحي الحياة . وان نوع العلاقات الاقتصادية التي تربط أو تفرق بين أفراد أي مجتمع هي التي تقرر نوع حياتهم في كل الاتجاهات الأخرى .

وحين اكتشف المجتمع هذه الحقيقة التي كانت خافية عليه قبل ذلك ، وادرك أهمية العلاقات الاقتصادية في تقرير جميع أنواع الحياة في المجتمع سمى هذه الالوان

من الحياة التي ترتبط بلون النظام الاقتصادي الذي يسيطر عليها بأسمائها الاقتصادية ، ولكن ذلك الحماس المفاجيء الذي استقبل به الناس هذا الكشف الاساسي ، لا بد ان تخف حدته مع الوقت ، ولا بد ان ينظر إلى الاشياء بمنظارها الطبيعي العلمي الصحيح ، ولا بد ان تأخذ المسائل أوضاعها الطبيعية حين تدرس درساً هادئاً . وحينذاك أدرك المجتمع ، أو جله على الاقل ان الاقتصاد وان شغل مركزاً مهماً جداً لم يكن ليبدو انه يشغله قبل هذا الكشف ،ليس سبباً وباقي ألوان الحياة نتيجة ، كما اراد المكتشف ان يصف العلاقات.وانما هو عنصر من جملة العناصر المعقدة المختلفة الكثيرة التي تتكون منها الحياة ، وانه قد يكون سبباً وقد يكون نتيجة ، فكما ان الاقتصاد بصنع التاريخ ويلون الأدب ويصبغ الاجتماع فكذلك التاريخ والادب والاجتماع تصنع الاقتصاد . واذا كان تغيير وضع العلاقات الاقتصادية في أي مجتمع ذا أثر في تغيير وضع علاقاته السياسية فكذلك تغيير وضع العلاقات السياسية في مجتمع آخر قد يكون سبباً في تغيير وضع علاقاته الاقتصادية .

بهذا المعنى تصبح كلمة الاشتراكية اذن كلمة لا تقتصر على التعبير عن حال اقتصادية معينة فحسب ، بل هي تعبير عن نوع من الحياة بأكملها ، بجميع وجوهها . والاشتراكية بهذا المعنى ليست وضعاً اقتصادياً معيناً ، وليست سعياً في سبيل وضع اقتصادي معين فحسب بل

هي فهم اشتراكي لكل نواحي الحياة . وحين أقول بأنني اشتراكي فقد عنيت موقفي لا من العلاقات الاقتصادية التي أعيش من خلالها فحسب ، بل لقد عنيت موقفي من جميع نواحي الحياة التي تلامسني وألامسها .

وسبب هذا ان الحياة نفسها شيء واحد ، تيار واحد لا يعرف هذا التقسيم الذي يخترعه عقلنا لكي يسهل على نفسه ادراك حقائق الحياة ، ثم ينسى أنه هو نفسه الذي قام بهذا التقسيم ويظن ان الحياة كانت مقسمة هكذا منذ الازل فالحياة لا تعرف شيئاً اسمه الاقتصاد منفصلاً عن شيء اسمه الاجتماع ، وشيء آخر اسمه السياسة . الحياة شيء متكامل متصل ولكن عقلنا العاجز المغرم بالتحليل والدرس لن يتمكن من القيام بهذا التحليل والدرس اذا واجه الحياة ككل قائم بذاته فهو مضطر الى ان يقسم الحياة الى أوجه . والى ألوان . والى أنواع من العلاقات فيسمي بعضها اقتصاداً ، ويسمي بعضها الآخر سياسة ، وبعضها اجتماعاً واخلاقاً وديناً وتاريخاً وأدباً وعلماً الى آخر هذه السلسلة ان كان لها آخر .

الحياة كالنهر ، شيء واحد متصل مستمر . ولكن العقل حين يحاول ان يدرس هذا النهر لن يدرسه ككل. فهو يحلل الماء الذي يجري فيه ويسمي هذا كيمياء ، ويدرس سرعة تياره وانحداره ويسمي هذا فيزياء ، وحين يدرس أوله وآخره واتجاهه يسمي هذا جغرافيا . ولكن هذا النهر

ليس كيمياء ولا فيزياء ولا جغرافيا إنه يضم هذا كله في خلاله . وواجب الانسان ان يحلل حتى يفهم لأن هذه هي طريقة العقل الوحيدة في الفهم : ولكن واجبه أيضاً أن يركب نتائج التحليل وان يدرك انه يمارس جزءاً من كل ، ليقترب من الحقيقة المطلقة التي لا تعرف التجزؤ ولا التحليل .

والحياة العامة لاي مجتمع هي كالحياة العامة لاي شخص فأنا طبيب ، وانا مواطن ، وصديق لكثير من الناس ، وأب وزوج وعضو في ناد . وانا في كل صفة من هذه الصفات لي ملامح معينة خاصة لشخصيتي . ولكن هذه الملامح الكثيرة ليست ألواناً متناقضة ولا يمكن ان تكون متناقضة لانها جزء مني ، مني أنا الشخص الواحد الذي يجمع ويضم هذه الصفات . ليس هذا فحسب ، بل ان كل صفة من هذه الصفات لا بد مؤثرة متأثرة ببقية الصفات وموقفي من أي قضية كمواطن لا بد ان يكون ذا أثر في موقفي كطبيب وفي موقفي كأب كعضو في ناد الخ ... بل ان موقفي في أي صفة من هذه الصفات ، اذا عرف على حقيقته فيدل على موقفي من الصفات الاخرى الى حد كبير .

وكذلك حياة أي مجتمع ، كبيراً أو صغيراً ، أمـــة أو أسرة ، حكومة أو حزب ، فموقف أي مجتمع ازاء الحريات السياسية يقرر موقفه من الاقتصاد ، وموقفه من

النظم الاقتصادية ، يقرر موقفه من الحريات السياسية، وكذلك من الاستعمار ومن الاخلاق ومن التعليم ومن الادب ومن التاريخ إلى آخر هذه السلسلة التي لا تنتهي .

ولذلك فاننا يجب ان ندرك ان الاعمال التي يقوم بها أي فرد أو أي حزب أو أية حكومة ، في مختلف شؤون الحياة لا يمكن ان تقرر في حقيقتها بمجرد الصدفة ، أو بمجرد نوبة من الارادة العابرة بل هي متصلة أشد الاتصال بموقف ذلك الفرد ، أو ذلك الحزب أو تلك الحكومة من بقية القضايا بأجمعها .

فاذا أدركنا هذه القضية تمام الادراك تمكنا من حل كثير من القضايا التي تبدو لنا أحياناً غامضة أشد الغموض ، وتمكنا من ان نجد تفسيراً علمياً وصحيحاً وواقعياً لكثير من الامور التي لا يمكن ان نجد لها تفسيراً بغير هذا اللون من التفكير .

ومن البديهيات التي نشاهدها دائماً ان الاقطاع — وهو نظام اقتصادي في الأصل — مرتبط أشد الارتباط بالاستعمار ومن العبث ان نجد اقطاعاً يحارب الاستعمار محاربة جدية وعكس ذلك صحيح أيضاً . فالاستعمار نجد ان من أكثر وسائله نجاحاً في إبقاء نفوذه أطول مدة ممكنة في أي بلد مستعمر خلق طبقة اقطاعية ، ولا غرابة في هذا . فالاقطاع استغلال بشع من طبقات الاقطاعيين لطبقات العاملين الفلاحين . والاستعمار استغلال بشع من أمة من الامم المتقدمة

اقتصادياً لأمة متخلفة ، والمستغل لا بد ان نجد له نصيراً وعوناً من مستغل آخر مثله . وأكبر عدو للاستعمار اباحة الحريات للامة المستعمرة . وأكبر عدو للاقطاعيين اباحة الحريات للطبقات المستغلة . وأكبر عدو للاستعمار اشاعة التعليم والثقافة بين الناس . وأكبر عدو للاقطاعيين اشاعة التعليم والثقافة بين فلاحيهم . فالاقطاع والاستعمار نصيران أساسيان في طبيعتهما .

الا أنه قد يحدث أحياناً . ولا سيما في أوائل عهد الاستعمار في أي بلد . ان نجد من مصلحته لا أن يستثمر الطبقات الشعبية فحسب بل ان يحاول أكبر استغلال ممكن وذلك بأن يستغل الطبقات الاقطاعية نفسها أيضاً فالمستغل كما يمكن ان يتعاون مع مستغل آخر . كذلك يمكن ان يتنافس معه . وفي هذه الحالة فان الاقطاع لا ينضم الى الحركات المقاومة للاستعمار فحسب ، بل هو كثيراً ما يقودها . يقودها الى ذلك الحد الذي يدرك فيه الاستعمار ان من مصلحته ان يتحالف مع هذا المستغل الداخلي بدل ان يقاتله فيصل الاستعمار بذلك الى ذلك الحل الذي يضمن فيه مصالحه ومصالح الاقطاعيين في آن معاً . وتعود الحالة طبيعية كما وصفناها آنفاً .

وليس هذا يخاف على من يدرس تاريخ الشعوب المستعمرة في الهند ، وفي الصين ، وفي وطننا العربي ، في أجزائه المتفرقة . مر الاستعمار بالمرحلتين ، كما مر

الشعب أيضاً بالمرحلتين . مرحلة يقف فيها الاقطاع ضد الاستعمار المباشر وجهاً لوجه ، ثم مرحلة يقف فيها الاقطاع مع الاستعمار غير المباشر .

ولا حاجة بنا الى ان نرجع الى التاريخ لنبرهن على هذا ففي أقطارنا العربية اليوم قطر أرادت له حكومته ان يرتبط بالاستعمار بشكل ما . ثم أرادت ان تفسر هذا الارتباط بأنها تواجه خطراً خاصاً لا تتعرض له بقية الاقطار العربية . أو هي لا تدرك انها تتعرض له ، لانها بعيدة عنه ، أو لانها عاجزة عن التفكير في مصلحتها الحقيقية . الواقع ان هذه التفسيرات جميعها لا ظل لها من الحقيقة . وانما السند الحقيقي العلمي ، هو ان نفس الحكومة التي ارتضت الارتباط بالاستعمار انما تمثل مصالح الاقطاعيين كما لا تمثلها حكومة أخرى ، وكذلك فان نفس الحكومة قد انتهكت الحريات كما لم تنتهكها حكومة أخرى . والارتباط بالاستعمار والاقطاع وكبت الحريات مظاهر مختلفة من شيء واحد .

بل نأخذ مثلاً أحسن من هذا هو مثل مصر . فمصر مرت بالدور الأول الذي يتزعم فيه الاقطاع حركة مقاومة الاستعمار حين كان الاستعمار يستغل كلاً من الاقطاعيين والشعب معاً . ولكن حين قامت الحكومات المحلية وأمن الاقطاعيون على استغلالهم للشعب تهادن الاقطاع والاستعمار الى حد كبير . ولكن حين قامت ثورة مصر عام ١٩٥٢ وجهت ضربتها الأولى ضد الاقطاع . واذا كانت مصر بعد

ذلك قد تحررت من الاستعمار وحررت معها السودان وأجلت عن أراضيها جيوش المستعمرين ، وحررت تجارتها الخارجية واتجهت الى مصدر قوتها الحقيقي ــ العروبة ــ فان هذا كله لم يكن مجرد صدفة عابرة ، بل كان ضرورة حتمية تنبع من ذات النفسية التي بدأت عملها لتحرير مصر من الاقطاع .

وأولئك الذين يستغربون كيف انقلبت مصر من تلك الدولة التي كانت تتمسح العروبة تمسحاً خفيفاً وهي لا تدرك لها معنى ولا تقيم لها وزناً ، الى تلك الدولة التي أصبحت تقود العروبة وتقود حركة الوحدة كما لم تقدها دولة عربية من قبل يجب ان يدركوا التفسير العلمي الحقيقي لهذا كله :

ان الثورة بدأت بمحاربة الاقطاع ، وتابعت سيرها لمحاربة كل ما يتصل بمظاهر الاقطاع ومنها تجزئة الوطن الواحد الى اجزاء صغيرة تمارس الاقطاعيون فيها نشاطهم كما يبدو لهم .

فنقطة البدء هنا اذاً كانت محاربة الاقطاع ومن هنـــا كانت ثورة مصر تختلف كلياً عن انقلاب الشيشكلي في سورية فالشيشكلي أعلن بعد القيام بانقلابه بأنه سيحرر الأرض من الاقطاع وسينشيء اشتراكية على أنقاض الرأسماليـــة . ولكنه ما لبث ان جاء باقطاعي كبير وزيراً للزراعـــة ليشرف على توزيع الارض على الفلاحين ، وجاء بأحد أصحاب الشركة الخماسية وزيراً للاقتصاد ليشرف على تصفية الرأسمالية . وجاء برأسمالي كبير آخر وزيراً للمالية ليساعده

على هذه التصفية واذا بحكمه ينقلب الى حكم استغلالي بشع . فلا الارض تحررت ، ولا الرأسمالية اضمحلت ولا العمال كسبوا أي مغنم وبذلك أيضاً لم تتحرر سورية من مؤامرات الاستعمار ، ولا سارت خطوة واحدة في الخروج من قيد الارتباط مع سياسة المعسكرات الغربية. وهكذا ترون معي كيف ان سياسات الحكومات العربية الخارجية والداخلية والاقتصادية تنبثق انبثاقاً من مصدر واحد يجمعها جميعاً . فالحكومة التي تحارب الاقطاع في سياستها الاقتصادية لا بد ان تكون حكومة متحررة في سياستها الخارجية وان تتيح الحريات للشعب في نفس الوقت .

ولا عجب هنا ان ساور البعض شيء من الاستغراب ، أليس لهذه القاعدة استثناءات ، أو ليس ثمة دول عربية اتخذت طريق السياسة الخارجية المتحررة وهي ما زالت تعيش لا في ظل الاقطاع بل وفي ظل ما هو أسوأ من الاقطاع ؟

وفي جوابي على هذا أحب أن أؤكد ان هذه القاعدة، قاعدة النظر الشاملة للامور التي تنبع من أصل واحد فهي مضطرة بالتالي الى السير في خط واحد ، قاعدة صحيحة ليس فيها استثناء . واذا نحن شاهدنا بعض الاستثناءات فتفسيرها ليس في خطأ القاعدة ، بل في دخول عوامل جديدة عليها .. فاذا كان بعضكم ما يزال يذكر شيئاً من علم الفيزياء فقد يذكر قانون بويل وماريوت الذي يقول انه اذا ارتفعت

درجة حرارة الغاز بنسبة معينة ازداد حجمه بنسبة معينة كذلك . وهذه قاعدة صحيحة لا غبار عليها . لكن اذا ارتفعت درجة حرارة الغاز ولم يزدد حجمه ، كأن يكون محصوراً في اناء مغلق من جميع الجهات فهل تكون القاعدة خطأ ، أو يكون لها استثناءات ؟ العلم يقول لا . وانما يضيف الى القاعدة كلمة « اذا ظل الضغط ثابتاً » وكذلك يمكن ان نضيف نحن عبارة « اذا كانت بقيـــــة العوامل ثابتة » .

فالدولة التي تحررت سياستها الخارجية ولم تتحرر في أية ناحية من نواحي سياستها الداخلية أو الاقتصاديةفسياستها الخارجية هذه ليست من طبيعة الاشياء وانما تفسرها عوامل أخرى موقتة لا يهمنا سردها الآن وانما يهمنا ان نقول ان الاطمئنان الى ان هذه السياسة ستدوم لا يمكن ان يحصل الا حين يرافقها ما يجب ان يرافقها من اصلاحات اقتصادية وتحرر داخلي .

نحن نرى اذن انه حيثما حورب الاقطاع وجد التحرر ووجدت الروح القومية الاصيلة في وقت معاً . ولا يمكن ان يوجد أي منها في عزلة عن الاخريات .

فالاشتراكية والحرية والوحدة اذن ، ليست أسماء مختلفة لاشياء مختلفة تم جمعها صدفة ، وبمجرد لمحة عابرة ، وانما هي أوجه مختلفة لشرع واحد أساسي ، تنبع منه جميعاً وتنبثق انبثاقاً . واذا كانت الاشتراكية تمثل ناحيته الاقتصادية

في الأساس ، والحرية تمثل ناحيته السياسية ، في الأساس والوحدة تمثل ناحيته القومية في الاساس فهذه جميعاً ، ليست الا نواحي مختلفة لشيء واحد . وهذا الشيء الواحد الذي تنبع منه جميعاً هو احترام قيمة الانسان . احترام تجربته القومية وكيانه القومي ، واحترام حياته بتأمين مستوى لائق لـه من الاقتصاد والثقافة والصحة ، واحترام فكره بتأمين حرية هذا الفكر وتأمين التعبير عن هذا الفكر .

هذا هو المبدأ الاساسي الانساني الواسع الذي انبثقت منه كل هذه القيم وكل هذه الاهداف . فاذا آمنت بالانسان وقيمة الانسان ، وقدر الانسان فقد كان علي ان أؤمن بالوحدة والقومية وبالحرية وبالاشتراكية لان كلاً منها انما تمثل ناحية من نواحي قيمة الانسان الاساسية اذن فايماني بالحرية لا قيمة له اذا لم اؤمن بالاشتراكية ، ذلك ان الحرية لا تعطى للانسان الا اذا كان ثمة ايمان بالانسان واذا كان ثمة ايمان بالانسان ، فلا يجوز ان نؤمن به في ناحية ونكفر به في ناحية أخرى . الايمان بالانسان لا يتجزأ . فاما ان نؤمن واما ان نكفر . اما ان نؤمن به نصف ايمان واما ان نكفر به نصف كفر ، فلا ايماننا بايمان ولا كفرنا بكفر . واذا آمنا بالانسان ايماناً عميقاً ، فلا بد ان نمنحه ما يستحق بالاشتراكية ، وان لا نأخذ منه ما يمكن ان نمنح بالحرية . كل هذا في حدود تجربته التاريخية وتجربتـه القومية .

نحن اذن نخطيء حين نظن ان الوحدة العربية يمكن ان تتحقق في ظل الاستعمار أو تحت اشرافه ونحن كذلك نخطىء حين نظن ان الوحدة العربية يمكن ان تتحقق في ظل أنظمة اقطاعية تقوم على استغلال الاجراء أبشع استغلال . في ظل الاستعمار . أو بالتحالف مع الاستعمار لا يمكن ان تقوم وحدة لان التجزئة عمل من صنع الاستعمار والتوصل الى الوحدة يحتاج الى عملية نضال ضد التجزئة وضد الاستعمار الذي صنع التجزئة أي يحتاج الى عملية نضال من أجل الوحدة ومن أجل التحرر في نفس الوقت . واذا ظهر في وقت من الاوقات ان الاستعمار قد قبل عملية وحدة أو مشروع وحدة أو عمل على تشجيع مثل هذا المشروع فانما يريد ان يضرب به عملية نضال حقيقية أخرى في مجال آخر في ذات قوة شعبية تدرك ان الوحدة والتحرر شيء واحد لا ينفصل . فالاستعمار انما يريد ان يقدم بديلا مغشوشاً من شيء واحد أصيل .

والوحدة كذلك في حاجة الى ايمان بالقومية ولا يتأتى ايمان بالقومية دون ايمان بالشعب . ولا يتأتى ايمان بالشعب دون ايمان بالانسان اي ايمان بحريته وبحقه في حياة اقتصادية كريمة . ولذلك فلا ايمان بالقومية حيث كان ثمة ايمان بالاقطاع . ولذلك فلن يخلص لاسم الوحدة ولا لهدف الوحدة جماعة يقوم كيانهم على الابقاء على الاقطاع .

ومن هنا نرى ان الشعار الذي رفع منذ مدة شعار

الوحدة بأي ثمن شعار فارغ ، لانه يريد ان يقيم وحدة بلا محتوى . وحدة من أناس لا يؤمنون بها وبالتالي وحدة في الخيال وعلى صفحات الصحف فحسب . ولقد أدرك أصحاب هذا الشعار نفسه خطأهم بعد مدة وجيزة، ورجعوا عنه .

واذا كان لا يمكن التوصل الى الوحدة عن طريق الاقطاع فكذلك لا يمكن التوصل الى الحرية عن طريق الاقطاع. وازمة الحكم الديمقراطي في أقطارنا جميعاً انما تنبع من هذه الحقيقة . ان تأمين الحكم الديمقراطي لا يتم بمجرد اصدار الدستور والقوانين وانما يتم بالقضاء على الاقطاع في نفس الوقت والسير في طريق اشتراكي . الدستور يمنحنا الحرية والاقطاع يفقدنا اياها . وازمة الحكم الديمقراطي في مصر قبل الثورة وفي لبنان وفي سورية وفي العراق انما تنبع من هذه الحقيقة . لم يكن في مصر قبل ديمقراطية ولا في العراق الآن ولا في لبنان وان كان فيها برلمانات ودساتير . وانما يمكن ان يكون فيها جميعاً ديمقراطية وحرية حقيقية حين يقضى على الاقطاع وحين تتجه نحو الاشتراكية .

فالوحدة والحرية والاشتراكية اذن أسماء مختلفة الأوجه من حقيقة واحدة هي ايماننا بالانسان ، واذا فصل أحدها فقد الآخر قيمته وكلما تحقق وجه من هذه الوجوه كان معنى ذلك تقدم في تحقيق الوجه الآخر .

اذن أنا مضطر الى الايمان بالاشتراكية اذا آمنت بالحرية واذا آمنت بالحرية ليس لي في ذلك خيار والا ناقضت نفسي . ليس في امكاني ان اقول انني مؤمن بالوحدة ولكني غير مؤمن بالاشتراكية وليس في امكاني ان أقول انني مؤمن بالحرية ولست مؤمناً بالاشتراكية لانه ليس بامكاني ان أقول انني مؤمن بنور الشمس ولست مؤمناً بحرارتها . وجهان مختلفان لشيء واحد ، ولئن كان نور الشمس أوضح في بعض الاماكن من حرارتها أو كانت حرارتها أوضح في بعض الاماكن من نورها الا ان الاثنين يمثلان وجهين مختلفين لشيء واحد هو طاقة الشمس .

ليس هذا فحسب ، بل ان معركتي في سبيل الوحدة ومعركتي في سبيل الحرية هي في نفس الوقت معركتي في سبيل الاشتراكية ولذلك فلا معنى لاعتراض المعترض الذي يقول لي : انته أولاً من معركة الوحدة ، ثم انتقل الى معركة الاشتراكية . أو انته من معركة الحرية ثم انتقل الى معركة الاشتراكية فمعركة الاشتراكية لن تبدأ حين انتهي من أي من هاتين المعركتين وانما هي بدأت حينما بدأت معركتي في سبيل هذين الهدفين . والاشتراكية كما قلنا ليست نظاماً وقوانين فحسب ، وانما هي نظرة للحياة وادراك لقوانين تسير هذه الحياة ، والاشتراكية من أجل ذلك ليست جهازاً وليست مجموعة من الانظمة ، وانما هي طريق لها أول ولكن ليس لها آخر لانها تسير مع الزمن

تتغير مع تغيره وتتطور مع تطوره كما تتغير وتتشكـــل بتغير المكان والبيئة وتشكلها .

وعلى هذا فأنا حين أؤمن بالشعب ولا سيما بكتلته الكادحة وحين أؤمن بأنهم الغاية والهدف وانهم الوسيلـــة والاداة في وقت واحد ، وحين ادرك ان لكل فرد من أفراد الشعب حقاً كاملاً في ان تهيأ له ظروف الحياة الانسانية من اقتصاد وسياسة وثقافة وصحة وحين ادرك ان صراع الطبقات ومصالح الطبقات تشترك في صنع التاريخ وتصنع المثل العليا التي توافق مصلحتها في أي زمن من الازمان ، حين أدرك ان بعض هذه الطبقات ستقاومني حين أنادي بالحرية ، وستقاومني حين أنادي بالوحدة وتقاومني حين أنادي بالاشتراكية ، وحين أدرك ان النظام الذي أعيش في ظله نظام يقوم على الاستغلال ، وان كرامة الفرد والاستغلال لا يمكن ان يجتمعا في آن معاً فقد بدأت خطوتي الأولى نحو الاشتراكية ، بدأت الطريق .

فالخطوة الاولى نحو الاشتراكية ليست تطبيق النظام الاشتراكي وانما ادراك النظرة الاشتراكية . وادراك القوى التاريخية الحقيقية التي تسير أي مجتمع . ولذلك فحين يأتي أصحاب القلوب البريئة والمقاصد الحسنة ، وهم كثيرون ويقولون لماذا لا يتنازل حكام العرب في قطر ما أو في أقطارهم عن انانيتهم . يظنون ان تغييراً طفيفاً في الاخلاق سوف يغير مصير العرب ، أو حين يأتي هؤلاء أنفسهم

ويقولون مثلاً اننا قد قصرنا في الدعاية للعرب في أمريكا واننا لو أفهمتنا أمريكا حقيقة قضية فلسطين لتغيرت سياسة أمريكا وحللنا قضية فلسطين، هؤلاء جميعاً واهمون لانهم لا يدركون حقيقة القوانين التي هي أقوى من حكام العرب وتسيرهم رغماً عنهم في اتجاههم الانساني ولا يدركون حقيقة القوانين التي تسيطر على الاستعمار وتسيره في اتجاهه الذي لا يعتمد على دعاية أو على تقصير في الدعاية.

فالنظرة الاشتراكية تفتح عيوننا على القوانين التي تصنع التاريخ كما تفتح النظرة العلمية عيوننا على القوانين التي تصنع الكيمياء. فاذا عرفنا هذه القوانين كان نضالنا في سبيل الوحدة أو في سبيل الحرية أو في سبيل الاشتراكية نفسها نضالاً صحيحاً متجهاً في الاتجاه الصحيح، ووفرنا جهوداً ضخمة تبذل في التفتيش عن الطريق الصحيح بواسطة ما يسمى بالتجربة والخطأ، أي نجرب الطريق ثم نعرف اذا كان صحيحاً أم لا.

بالاعتماد على مثل هذه المعرفة بالاشتراكية، حين يأتي رئيس وزارة أردني ويقول لننس الماضي ولنبدأ عهداً جديداً — نحن نرفض ان ننسى لاننا نعلم اننا ان نسينا نحن فهو غير قابل للنسيان، وقد صنعه تاريخه وطبيعته والطبقة التي نصب نفسه من أجل الدفاع عنها والمبادىء التي ارتبط بها طيلة حياته. وحين يصدر برلمان اقطاعي أو حكومة اقطاعية قانوناً بالزامية التعليم ويقول لنا هل

تريدون أكثر من هذا ؟ يجب ان لا نصدقه لانه يصدر القانون ليسكتنا ولكنه لن ينفذه كما حصل في جميع أقطارنا العربية حتى الآن . واذا ادعت حكومة اقطاعية أنها ستسعى في سبيل الوحدة أو ستتيح الحريات للناس فيجب ان نأخذ حذرنا ، فهي اما انها تريد ان تغطي مقاصد سيئة بمظهر حسن ، واما أنها مدفوعة دفعاً من الشارع ومن الرأي العام الى القيام بعمل لا تؤمن به فهي ستحاول التخلص منه في أقرب فرصة ممكنة .

وايماننا بالاشتراكية — بالاضافة الى هذا كله — لا يعيننا على تعيين هدفنا وتحليل أصدقائنا واعدائنا فحسب ، بل هو يضع في ايدينا الوسيلة لتحقيق ما نهدف اليه . كذلك ان اشتراكيتنا تعلمنا أولاً : ان السلاح الوحيد الذي يحقق الاهداف الشعبية هو الشعب نفسه ولا سلاح غيره ولذلك فنحن حتماً بفهمنا هذا سنطرح جانباً كل الاحلام التي تراود بعض الحالمين بما يسمى مثلاً ببروسيا العرب . أو بعض الحالمين بالاسلوب الدبلوماسي الانيق في حل المشاكل وحكم العقلاء ، نحن ندرك ان هذا كله أحلام حالمين ، ولذلك فعمادنا الأول والاخير هو الشعب وحده .

وايماننا بالاشتراكية يفسر لنا هذه الكوارث الكثيرة التي أصابتنا فيما بين الحربين وما بعدهما بقليل ، وهـو وحده — هذا الايمان — هو الذي يفسر لنا كل هذا التفسير المنطقي التاريخي المعقول الذي لا تفسير غيره . ان مجرد

القول بالضعف العسكري أو بمؤامرات الدول الاستعمارية ، أو بجهل الغرب لقضيتنا أو بخيانة الحكام لا يفسر في الواقع شيئاً ، ولكنه يعد من النتائج وهذه كلها موجودة أو كانت موجودة فعلاً ولكنها ليست أسباباً بل هي نتائج لوضع اقتصادي وسياسي واجتماعي معين فيه تقبع الاسباب الحقيقية وفيها يجب ان نفتش وان نعرف . نفتش ونعرف لا لمجرد التفتيش والمعرفة ولكن لأن المعرفة الصحيحة هي الخطوة الأولى للعمل الصحيح .

وهكذا ترون ان الاشتراكية والايمان بها والعمل من اجلها ، شيء من صلب نضالنا الآن – وهو ليس شيئاً للمستقبل القريب أو البعيد – شيء نعيشه كل يوم وكل لحظة وشيء مرتبط ارتباطاً عميقاً بكل ما يمكن ان نسعى اليه .

وقبل ان أختم هذا البحث ، أحب ان أتصور ان أحد السائلين سيسألني بعد هذا كله ، ومتى تتحقق الاشتراكية؟ وأحب ان أجيب بأنها متحققة فعلاً بذلك القدر الذي تحققت فيه فيه كل من الوحدة والحرية ، لا أكثر ولا أقل ، فانظروا الى هذين ، كم تحقق منهما حتى الآن؟ تعرفوا كم تحقق من الاشتراكية ، وستظل هذه النسبة ثابتة لحد كبير .

١٩٥٧